مجلة
كليات المعلمين
مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدر عن وكالة وزارة التعليم العالي لكليات المعلمين

تفسير كتاب الله الكريم بما يخالف لغة العرب

دراسة نقدية

د. هند سالم باخشوين
أستاذ النحو والصرف المساعد
كلية المعلمات في جدة

المجلد الأول | العدد الأول | صفر ١٤٢٨ - مارس ٢٠٠٧م

مقـــدِّمـــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلَّم،وبعد:

فمذ نزل القرآن الكريم وهو يمـــدُّ الدرس اللغويَّ (نحـــوه وصـــرفه وبلاغته) بمداد لا ينضب، ويفتح أمـــام الباحثين مجالات لا تُحصى .

وقـــد منَّ الله عليَّ ببحث يتعلَّق بكتاب الله تعالى، بدا لي طريفًا.

وهذا البحث نواته ســـؤالٌ: هـــل يُمكن أن يقول أهل التّفسير في كتاب الله بـــشيء يخالف لغة العرب؟

ســـؤال أثاره بابٌ عقده مـــؤلّف من القرن الخامس الهجري، وســـأحاول في هـــذه الدراسة الإجابة عن هذا السّـــؤال، فعسى الله سبحانه وتعالى أن يوفّـــقني ويفتح عليَّ، إنَّـــه نعـــم المعين.

وقد سلكتُ في دراستي هذه المنهج التّالي:

- عـــرض الآية ونصَّ التّفسير المخالف للنحويين واللغويين كما أورده الحدَّاديُّ.
- محـــــاولة نسبة هذا التّفسير لقائله.
- الإشـــــارة إلى المشهور الشّائع في تفسير هذه الآية.
- عـــرض التّفســـــير المخالف على كتب اللغة والنحو.
- الرّبط والتوفيق بين التّفسير الوارد وبين ما جاء عند اللغويين والنحويين.

هذا وقد التّزمت ترتيب الحدَّاديِّ نفسه لمسائل الباب، و لم أر ضرورة لإعادة ترتيبه بصورة مختلفة.

مــدخــل

نزل القرآن الكريم بلسان عربيٍّ مبين وجرى على أساليب العــرب في لغتــهم مفردات وتراكيب، وكانوا ــ وهم الأفصح ــ يفهمون جلّه، وما خفي عليهم يقــوم الرّسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم وصحبه من بعـــده بإيــضاحه وتفــسيره. وكانت علوم اللسان حينئذٍ ملكات للعرب لا يُرجع فيها إلى نقل ولا كتاب[1]

فلما انتشر الإسلام، ودخل في الدين الجديد أُمم لم تكن العربية لــسانها بــدأ ظهور اللحن، وإن كنّا لم نعدم أخبارًا تشير إلى وجوده من قبل[2]، غير أنّه بعد اختلاط العرب بالأعاجم شاع وأفسد الألسنة، بل لم يسلم منه بعض الخواص كالحجــاج بــن يوسف[3]. حينئذٍ كان لابدَّ أن تشمَّر السّواعد؛ لتحيط القرآن الكريم خصوصًا واللغــة العربية عمومًا بسياج يحول دون تسرُّب اللحن إليهما، مع يقين ثابــت أنَّ كتــاب الله محفوظ من قبل مترله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[4]فكان نقط الإعراب ونقط الإعجام ثمَّ كان وضع النّحو الذي وإن اختلفت الرّوايات في نسبة نشأته[5] فقد كان أوَّلَ ما دُوِّن من علوم العربية، يقول أبو الطّيِّب: «واعــلم أنَّ أول ما

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٣٨ .

(٢) الخصائص ٢/ ٨ ، المزهر٢/٣٩٦.

(٣) أخبار النّحويين البصريين ٤١

(٤) سورة الحجر ، آية (٩) .

(٥) نشأة النّحو ١٣.

اختلّ من كلام العرب وأحوج إلى التّعليم الإعراب؛ لأنّ اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعرّبين من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1]ثم استشرى وانتشر حتى صاروا يعدّون من لا يلحن، وحين تجاوز اللحن لغة الخطاب إلى قراءة القرآن الكريم كان لابد أن يظهر نوع من التّحدي اللغوي الذي خلق حماسة للعمل على حماية القرآن الكريم أولا ثمّ حماية اللغة وذلك بدراستها واستنباط قواعدها العامة وتوظيفها لخدمة النّص القرآني[2]ولم يكن ذلك إلا حرصًا على الفهم السّليم للتشريع الذي جاءت به رسالة الله[3]فهمًا يوصل إلى المراد من الوقوف على معاني القرآن وهو التّدبُّر والتفكُّر[4].

ومعلوم أنّ القرآن نزل على قوم يفهمونه بمقتضى سليقتهم ولسانهم العربي، غير أنّه يعلو على سائر كلام العرب بألفاظه وأساليبه اللغوية فضلاً عن معانيه، ولذا كانوا يتفاوتون في فهمه وإدراكه وإن كان كلٌّ منهم يدرك منه ما يوقفه على إعجازه، فكان بعضهم يفسّر ما غمض على الآخر من معنى، فإن أشكل عليهم لفظ أو غمض عليهم مرمى ولم يجدوا من يفسّر لهم سألوا الرّسول صلى الله عليه وسلم فبيّنه لهم. وبهذا نشأ علم التّفسير الذي مرّ بمراحل عديدة في عهد الصحابة والتابعين، ثمّ في عهد

(١) مراتب النّحويين ٢٣.

(٢) الفكر النّحوي عند العرب وأصوله ومفاهيمه ص ٧١ ، ٧٩ .

(٣) المرجع السّابق ص ٩٧ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ٢/١٨٠ .

التّدوين، وتشعَّب إلى تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي ... إلى غير ذلك ممّا لا يعنينا الآن الخوض في تفاصيله[1].

لكن لابدَّ من تأكيد أنَّ هذا العلم الذي يُفهم به كتاب الله وتُبيَّن به معانيه، وتُستخرج أحكامه وحِكَمه يتطلَّب من صاحبه معرفة بعلم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات وأسباب النّزول والناسخ والمنسوخ[2] وأنَّ كلَّ من تصدَّى لتفسير كتاب الله عليه ـ كما يقول السّيوطي ـ «أن يكون ممتلئًا من عدة الإعراب لا يلتبس عليه اختلاف وجه الكلام، فإنَّه إذا خرج بالبيان عن وضع اللسان إمَّا حقيقة أو مجازًا فتأويله تعطيله»[3] وينصُّ أيضًا على أنَّ العلوم التي يحتاج إليها المفسِّر خمسة عشر علمًا، وذكر في أولها علم اللغة وعلم النّحو حيث قال: «يجوز تفسيره لمن كان جامعًا للعلوم التي يحتاج المفسِّر إليها وهي خمسة عشر علمًا، أحدها: اللغة؛ لأنَّ بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: لا يحلُّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلَّم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب، الثاني: النّحو؛ لأنَّ المعنى يتغيَّر ويختلف باختلاف الإعراب فلا بدَّ من اعتباره....»[4].

---

(١) بحوث في أصول التّفسير ١٤ .

(٢) البرهان ١/١٣.

(٣) الإتقان ٢/١٧٦ .

(٤) المرجع السّابق ٢/١٨٠ .

إذًا فاللغة والنحو من أهمّ عدَّة المفسِّر التي يستعين بها على فهـــم كتـــاب الله، وعليه فقد وجدنا كتب التّفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه، والأخفش والكسائي، والفرَّاء... وغيرهم، ووجدنا تصريحات من نحو ما رُوي عن مالك بن أنس أنّه قال: «لا أُوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسِّر كتاب الله إلا جعلته نكالا»(١)، وأخرى تؤكّد أنَّ «كلَّ معنى مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به، ومن ادَّعى فيه ذلك فهو في دعواه معطِّل»(٢).

مما سبق ندرك أنّه لا سبيل إلى فهم وتفسير كتاب الله إلا لمن أعدَّ لـــه عدَّتـــه وتسلَّح بسلاحه؛ سلاح أهمُّ ما فيه اللغة والنحو، ومن ثم فلا بدَّ أنَّ عجبًا سيعترينا حين نجد من يصـــرِّح أنَّ في التّفسير أقوالا لا أصل لها عند النّحـــويين ولا في اللغـــة(٣)، أو يقال: «ليس كلُّ ما يؤثر عن المفسرين يوجد له أصل في اللغة»(٤).

هذه التّصـــريحات أوردها شيخ القـــــرَّاء بسمرقند أبو نصر أحمد بن محمد بن أحمد السّمرقنديُّ المعروف بالحدَّاديِّ، المتوفَّى بعد الأربعمائة، في كتابه (المدخل لعلم تفـــسير كتاب الله تعالى) في باب ســـــمَّاه (*باب ما جاء عن أهل التّفسير ولا يوجد له أصـــل عند النّحويين ولا في اللغة*).

(١) البرهان ١٦٠/٢.

(٢) الموافقات للشاطبي ٣٩١/٣ .

(٣) المدخل لعلم تفسير كتاب الله ٩٨ .

(٤) المرجع السّابق ١٠٤ .

والدراسة التّالية تعرض وتناقش بعضًا من تعقُّبات الحدَّاديِّ على المفسّرين الذين خرج تفسيرهم ـــ كما قال ـــ عن حدود النّحو ونطاق اللغة، وذلك بعـــد تعريـــفٍ موجزٍ به وبكتابه.

أولا: تعريف موجز بالحدَّاديِّ

هو الإمـــــام العالم أحمد بن محمد بن أحمد أبو نصر الـــسّمرقنديُّ الحـــدَّاديُّ، نسبة إلى عمل الحديد أو إلى قرية اسمها حدادة خرج منها المؤلّف إلى سمرقند التي كانت مركزًا للعلوم الشّرعية وأقام فيها قرابة عشرين عامًا لزم فيها حلقات شـــيوخ الإقـــراء كالشيخ المقرئ أبي يحي محمد بن سليمان الخياط الذي قرأ عليه ختمات كثيرة، ثمّ انتقل إلى بغداد ومكث فيها عشر سنين، تتلمذ على علماء النّحو فيها كأبي سعيد الـــسّيرافي، وعلى بعض أعلام المقرئين، ثمَّ غادرها متَّجهًا إلى البصرة فنيسابور، ثمّ عاد إلى بغـــداد، عاكفًا في كلِّ أرض يترل فيها على ملازمة حلقات العلم. كانت وفاته في بغداد بعـــد الأربعمائة.

ثانيًا: تعريف بكتاب (المدخل لعلم تفسير كتاب الله)

هو كتاب في علوم القرآن والتفسير، وقد ذكر صاحبه في مقدِّمته سبب تأليفـــه له، حيث قال: «صنَّفت كتابي هذا تُحفة لولدي محمد نعمة الله، وصلة منِّي إياه، وهدية له ولسائر إخواني من المسلمين ـــ رضي الله عنهم ـــ أجمعين، وجعلته مـــدخلا لعلـــم تفسير كتاب الله تعالى ومعانيه، وتنبيهًا على ما غمض من طرقه ومبانيـــه، وردًا علـــى

الملحدين الطّاعنين في كتاب الله؛ لقصور علمهم عن افتنـــان لطـــائف لغـــة العـــرب، وفصاحتها، ومذاهبها ...»

وعند استعراض أبواب الكتاب نجد أنَّ المباحث النّحوية تـــشكّل الغالبيَّـــة العظمى فيه، نحـــــو:

- باب انتصاب الأسماء على المصادر .
- باب الاستثناء .
- باب البدل والمبدل منه .
- باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه .
- باب إدخال (مِن) في الكلام صلة وتأكيدًا .
- باب حذف (يـــا) من النّداء .
- باب حذف الجواب عن الشّرط .
- باب الفاءات .
- باب الأدوات المركبة .

وقليلة هي المباحث البلاغية نحـــــــو:

- باب المجاز والاستعارة .
- باب المقلوب .
- باب إضافة الفعل إلى من لا فعل له في الحقيقة .

وأقلُّ منها المباحث الصوتية نحـــــــو:

- باب الحروف التي جاءت لمعنى في غيرها، (تحدَّث فيه عن مخارج الحروف، وصفاتها) .
- باب الإدغام .

ومباحث أخرى خاصة بالقرآن الكريم نحـــــو:

- باب وجـــوه الأمر في القرآن .
- باب وجـــوه النّهي في القرآن .
- باب في قوله تعالى { الحمد لله ربِّ العالمين } .
- باب الكلمات التي جاءت في سورة من القرآن، وجوابها في سورة أخرى.

والحدَّاديُّ في عرضه لأبوابه يستطرد كثيرًا، ويكثر من إيراد الشّاهد القرآني على المسألة التي يتناولها، وقد يجمع بينه وبين الشّاهد الشّعري لإيضاح مراده .

والباب الذي وقفت عنده لأعرض ما فيه على كتب اللغة وعلماء النّحو هو *(باب ما جاء عن أهل التّفسير ولا يوجد له أصل عند النّحويين ولا في اللغة)*

باب ماجاء عن أهل التّفسير ولا يوجد له أصل عند النّحويين ولا في اللغة

مسألة:

يقول الحدّاديُّ في قولــه تعــالى ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [(١)]: الوقف على (لا) ثم تجعل (تقتلوه) ابــــتداء، فهذا غير مفـــهـــوم عند النّحويين»[(٢)].

نُسِب هذا التّفســـــير إلى ابن عبّـــــاس، وقد عدّه الفرّاء والعكبري خطأ[(٣)].

والمشهور في تفسير هذه الآية أنّ آسيا زوجة فرعون قالت له حين رأت الطّفل في التّابوت: هو قرة عين لي ولك، فقال: لك لا لي، ونهته عن قتله، وأتبعـــت النّهـــي برجائها أن ينفعهم؛ لظهور مخايل الخير فيه[(٤)].

فما عليه إجماع المفسرين أنّ (لا) ناهية و(تقتلوه) مجزوم بها.

ولو ثبتت صحة نسبة القول الذي أورده الحدّاديُّ لابن عبّاس على ما فيه من ضـــعف، فالأمر ليس كما صرّح الحدّاديُّ بأنّ جَعْل (تقتلوه) ابتداء غير مفهوم عند النّحـــويين؛

(١) سورة القصص ، من الآية (٩).

(٢) المدخل ١٠٧ .

(٣) معاني الفرّاء ٣٠٢/٢ ، وإملاء ما منّ به الرّحمن ٢/ ١٧٦ .

(٤) البحر المحيط ١٠٦/٧.

ذلك أنَّه قد جاء عندهم حذف النّون من الأفعال الخمسة في حالة الرّفع تـشبيهًا لهـا بالضمة، وإثباتها في حالتي النّصب والجزم[1]، ومنه قول الشّاعر:[2]

أبيتُ أسري وتبِيتي تَدْلِكي   وجْهَك بالعنبرِ والمسكِ الذّكي

مسألة:

يورد الحدّاديُّ أيضًا في مالا يوجد له أصل في اللغة ما نُقل في تفسير قوله تعالى ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[3] *قيل: المشط*[4].

يُنسَب هذا القول لعطاء وأبي روق[5]، وإن كان النّحّاس قد نسب لعطاء تفسير الزّينة هنا بمعنى اللباس[6] كما هو مشهور عند جمهور المفسّرين.

والزيـنة: فِعْلة من التّزيُّن، وهو اسم لما يُتجمَّل به من ثياب وغيرها. والزيـنة المأمور بأخذها هي ما يستر العورة.

(١) شرح ألفية ابن معطي ٣٦٣/١ ، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٦١٤/٢ .

(٢) غير معروف ، انظر الخصائص ٣٨٨/١ ، شرح جمل ابن عصفور ٦١٤/٢ ، شرح التّسهيل لابن مالك ٥٢/١ ، شرح الكافية الشافية ٢١٠/١ ، رصف المباني ٤٢٣ ، وارتشاف الضّرب ٨٤٥/٢ ، البحر ٤٩٢/١ الأشباه والنظائر ٥٨/١ .

وموطن الشاهد (وتبيتي تدلكي) حيث حذف نون الرّفع في غير موضع الجزم والنصب وحقهـا(وتبيتين تدلكين).

(٣) سورة الأعراف ، من الآية (٣١).

(٤) المدخل ١٠٩ .

(٥) البحر ٢٨٩/٤ .

(٦) معاني القرآن الكريم ٢٧/٣ .

والمشهور في تفسير الآية أنّ الرّجل في الجاهلية كان يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرب وانتزعت منه؛ لأنّهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها. وقيل: تفاؤلاً؛ ليتعرَّوا من الذنوب كما تعرَّوا من الثياب[1].

ولما كانت الزّينة اسمًا جامعًا لكلّ ما يُتجمَّل به من ثياب وغيرها، والمشط آلة مؤدِّية لبعض هذا التّجمُّل، فلن يخرج هذا التّفسير عن أصل اللغة التي قد تُنيب عن المصدر التّه حين نقول: ضربته سوطًا، أي: ضربًا بالسوط[2].

مسألة:

وقال الحداديُّ في قوله تعالى ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾[3] أي: تجعل كلّ واحدة منهما الأخرى ذكرًا في قول الشّهادة، فهذا ما يُروى عن أبي عمرو بن العلاء وسفيان بن عيينة[4].

القراءة بتخفيف الكاف قراءة سبعية لابن كثير، وأبي عمرو، وقراءة باقيهم بتشديدها، وكلاهما من التّذكُّر الذي هو ضد النّسيان؛ إلا أنّ من شدَّد عدَّى الفعل بالتضعيف، ومن خفَّف عدَّاه بالهمزة[5].

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/٣٣٢ ، البحر ٤/٢٨٩

(٢) شرح التّسهيل لابن مالك ٢/١٨١

(٣)سورة البقرة ، من الآية (٢٨٢) .

(٤) المدخل ١٠٩ ، وانظر الحجة للقراء السّبعة للفارسي ٢/٤٣٢ .

(٥) الحجة ٢/٤٣٢ .

أما التّفسير الوارد عند الحدّاديّ فقد جعله الزّمخشريُّ من بدع التّفاسير[١]، وقال ابن عطية: هذا تأويلٌ بعيدٌ غير فصيح ولا يحسن في مقابلة الضّلال إلا الذِّكْر[٢]، وقال أبو علي الفارسي: وأحسب أنَّ أحدًا من أهل التّأويل لم يذهب إلى ذلك غيره (يعني سفيان بن عيينة)[٣] وعلى ما في هذا التّفسير من بُعدٍ عمَّا أجمع عليه الجمهور إلا أنَّ له وجهًا في اللغة، يقال: أَذْكَرت المرأة فهي مُذْكِر إذا ولدت ذكرًا، وفي الدعاء للحبلى: أذْكَرت وأيْسَرت[٤]و(أَذْكَر) على وزن «أَفْعَل»، ولبناء «أَفْعَل» معانٍ منها الجَعْل، وللجَعْل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تجعله يفعل، كقولك: أخرجته، أي: جعلته خارجًا.

والثاني: أن تجعله صاحب شيء، نحو: أقبرته، أي: جعلت له قبراً[٥]

والثالث: أن تجعله على صفة، كقولك: أطردته، أي: جعلته طريدًا.

وعلى هذا الوجه الأخير يمكن تفسير (فتُذْكِر) الفعل المضارع من أذْكَر بمعنى: جعلتها ذكَرًا.

---

(١) الكشاف ٤٠٣/١ .

(٢) المحرر ٣٦٧/٢

(٣) الحجة ٤٣٣/٢ .

(٤) أساس البلاغة ، اللسان (ذكر) .

(٥) الممتع في التّصريف ١٨٦/١ .

فقياس أهل النّحو يرتضيه وإن ردَّه أبو حيان، بحجــة أنَّ الفعل (أذْكَر) لا يتعدى، وأنَّ أذْكَــرتُ المرأة، أي: صيرتُها كالذَّكَر غير محفوظ(١).

مسألة:

وفي قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾(٢) يقول الحدَّاديُّ: قيل في تأويله: حِضْن، رواه مجاهد عن أبيه. قال الشّيخ الإمام رضي الله عنه: فهذا لا يصح إلا بإضمار كلمة، تقديره: أكبرن لــه، أو أكبرن به(٣)

يقول الزّمخشريُّ في هذه الآية : «وقيل: أكبرن بمعنى حِضْنَ، والهاء للــسكت، يقــال: أكْبَرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته دخلت في الكِبَر؛ لأنَّها بالحيض تخرج مــن حــدِّ الصِغَر إلى حدِّ الكِبَــر»(٤).

ورد أبو حيَّــان كون الهاء للسكت بأنَّ إجماع القرّاء على ضمِّها في الوصــل دليل على أنَّــها ليست كذلك. والظاهر ــ كما يرى أبو حيَّان ــ أنّ الضّمير عائــد على الإكبار، أي: أكبرن الإكبار(٥).

---

(١) البحر ٢٤٩/٢ .

(٢) سورة يوسف ، من الآية (٣١) .

(٣) المدخل ١٠٦ .

(٤) الكشــاف ٣١٧/٢ .

(٥) البحر ٣٠٣/٥ .

وجاء في اللسان «قال أبو منصور: وإن صحت هذه اللفظة بمعنى الحيض فلـــها مخرج حسن، وذلك أنَّ المرأة أول ما تحيض فقد خرجت من حـــدِّ الـــصغر إلى حـــدِّ الكِبَـــر، فقيل لها: أكبرت، أي: حاضت فدخلت في حدّ الكِبَـــر الموجب عليها الأمر والنهي.. وأضاف أنَّ لغة الطّائي تصحح أنّ إكبار المرأة أول حيضها[1].

و يمكن أن نضيف أن تعرُّض المرأة لانفعال أو اضطراب نفسي غير معتاد قـــد يؤدي إلى تغيُّر موعد دورتها الشّهرية واضطرابه[2].

مسألة:

وفي قوله ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾[3]*يعـــلّـــق الحدّاديُّ: قيل: هي الفقـــر، عن الشّعبي*[4] المشهور في تفسير الفتنة هنا أنّها: الكفر أو الشّرك[5] وجاء في اللسان أنَّ جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار... وعن ابن الأعرابي: الفتنة الاختبـــار، والفتنة المحنة، والفتنة المال والفتنة الأولاد والفتنة الإحراق بالنار...[6].

(١) اللسان (كبر) .

(٢) www.yale.edu ، www .healthy.net

(٣) سورة البقرة ، من الآية (١٩١) .

(٤) المدخل ١١١ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ١/٢٦٤ ، والبحر ٢/٦٦ .

(٦) اللســـان (فتن) .

ويقول الخليل: الفتنة: العذاب[(١)]، وقيّد النّحّاس الفتنة بأنّها الاختبار الخبيث الذي يؤدي إلى الكفر[(٢)].

فما دامت الفتنة اختبارًا، بل اختبار خبيث ــ كما جاء عند النّحّاس ــ، وهي العذاب ــ كما جاء عند الخليل ــ فدخول الفقر فيها مقبول مقبول.

(١) العيــن ١٢٧/٨ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ١٠٦/١ .

مسألة:

وقـــال في قوله تعالى ﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾[1] هي الحبة الخضراء[2].

نُسب هذا القول إلى أبي صالح وزيد بن أسلم[3]، وفُسِّـــرت الحبة الخـــضراء بالفســـتق[4]

وأصل التّزجية الدفع والسَّوْق، يقال: الرّاعي يُزجي الماشـــــية، أي: يـــدفعها ويسوقها سَـــــوْقًا...، وبضاعة مزجاة: خسيسة يدفعها كلُّ معروضٍ عليه فلا تَنفُق[5] وكان إخوة يوسف قد جاءوا بمتاع الأعراب كالصوف والسمن وما أشبه ذلك مما يبيعه الأعراب، فمتاعهم في العادة كان تحته رديء المال، قاله الزّجاج[6]، فهي بضاعة تُـــدفَع ولا يقبلها كلُّ أحدٍ[7]، رغبة عنها واحتقارًا[8].

(١) سورة يوسف ، من الآية (٨٨) .

(٢) المدخل ١١١ .

(٣) البحر ٥/٣٤٠ .

(٤) المرجع السّابق

(٥) أساس البلاغة (زجي) .

(٦) معاني القرآن وإعرابه ٣/١٢٧ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/٤٥٥ .

(٨) البحر ٥/٣٣٩

فالإجماع على رداءة البضاعة ورخص ثمنها، فهي ليست مما يُتَّسع به[1] ثم اختُلف في تحديدها، ولو كان في ذكرها فائدة لنا دنيا أو أخرى لذكرها سبحانه، وهو أعلم بصلاح أمورنا، ومعلوم أنَّ ترك الإطناب فيما أُبْهِم من القرآن من أسس تفسير أهل السّنة[2]، فإن فسَّرها أبو صالح وزيد بن أسلم بالحبة الخضراء وهي الفستق كما يقول صاحب البحر المحيط فلا غرابة، ولاسيَّما أنَّ الشّام معروفة بزراعة الفستق.

مسألة:

وفي قوله تعالى ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾[3] يقول الحدَّاديُّ: «قيل: السّماع، فأيُّ نسبه بين السّماع والحبور؟»[4].

نُسب هذا التّفسير إلى وكيع ويحى بن أبي كثير والأوزاعي[5]. والحبور هو السّرور، ويُحْبَرون: يُسُّرون، يقول الزّمخشريُّ: «ثم اختلفت فيه الأقاويل؛ لاحتماله وجوه جميع المسارِّ، فقيل: يكرمون، وقيل: ينعَّمون، وقيل: يحلَّون، وقيل: التيجان

(١) معاني الزجاج ١٢٧/٣ .

(٢) اتجاهات التّفسير في القرن الرّابع عشر ٩٢/١ .

(٣) سورة الرّوم ، آية (١٥) .

(٤) المدخل ١١١ .

(٥) البحر ١٦٥/٧ .

على رؤوسهم»[1]فالحبور عام شامل لكل ما يدخل السّرور إلى النّفس، عبر الحواس بصرًا وسمعًا وتذوقًا وشمًا ولمسًا.

ثم إنَّ الفعل (يُحْبَرون) جاء بصيغة الفعل المضارع؛ لاستعماله للتجدد لأنَّهم كلَّ ساعة يأتيهم ما يسرُّون به من متجددات الملاذ وأنواعها المختلفة[2]فالنسبة قوية بين السّماع والحبور؛ إذ الأول ضرب من ضروب الأخير، فتفسير (الحبور) بـ (السماع) هو من باب ذكر بعض أنواع الاسم العام على سبيل التّمثيل وتنبيه المستمع على النّوع،لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه[3].

مسألة:

يقول الحدَّاديُّ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [4] *لا يرضى عمل القبط*[5].

يقول السّمين: (المفسدين) من وقوع الظّاهر موقع ضمير المخاطب؛ إذ الأصل: لا يصلح عملكم، فأبرزهم في هذه الصفة الذميمة شهادة عليهم بها[6]. وسياق الآية لا

(١) الكشاف ٣/٢١٧ .

(٢) البحر ٧/٦٥ .

(٣) الإتقان ٢/١٧٧ .

(٤) سورة يونس ، من الآية (٨١) .

(٥) المدخل ١٠٨ .

(٦) الدر المصون ٤/٦١ .

يمنع أن يكون المقصود بالمفسدين هم القبط؛ إذ الكلام قبله عن فرعون وقومه من أهل مصر. وفهم السّياق القرآني ومراعاته من القواعد المهمة التي يحتاج إليها المفسِّر[(١)].

مسألة:

يقول الحدَّاديُّ في قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[(٢)] قيل السّفيه الجاهل[(٣)].

نُسب هذا التّفسير إلى ابن جريج وابن زيد[(٤)]

وظاهر المعنى أنَّ قوم شعيب أنكروا عليه ما أمرهم به من عبادة الله وترك عبادة أوثانهم وإيفاء المكيال والميزان وعجبوا كيف يفعل ذلك وهو المعروف عندهم بالحلم والرشد.

غير أنَّ السّياق العام لا يأبى التّفسير الذي أشار إليه الحدَّاديُّ؛ إذ المقام مقام سخرية واستهزاء وهو باب معروف في العربية، يقول ابن فارس: «باب ما يجري من كلامهم مجرى التّهكُّم والهزء... ومن الباب حكاية عنهم ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ويقول: من سنن العرب مخالفة ظاهر اللفظ معناه، كقولهم قاتله الله ما أشعره![(٥)]، وهو

(١) أصول التّفسير ومناهجه ١٤٠ .

(٢) سورة هود ، من الآية (٨٧).

(٣) المدخل ١١١ .

(٤) المحرر الوجيز ٢١١/٩ .

(٥) الصاحبي ٢٥٠

ما صرَّح به الفـــرَّاء[1]وأبو حيَّان[2]، بل إنَّ الحدَّاديَّ نفسه أفرد لنحو هذا بابًـــا سمَّـــاه (باب المقلوب)[3].

وعلى هذا يكون مقصد قـــوم شعيب بقولهم ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ نـــسبته إلى غاية السّفه والغي، فعكسوا؛ ليتهكّموا به كما يُتَهكَّم بالشحيح الـــذي لا يَـــبِضُّ حَجَرُه، أي: لا يُنال منه خير[4]، فيقال له: لو أبـــصرك حـــاتم لـــسجد لـــك، قالـــه الزّمخشريُّ[5].

مسألة:

يقـــول الحـــدادي في قـــوله تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾[6] *قـــال بعـــضهم: شيبتك*[7].

ما وجدته في كتب التّفسير واللغة أنَّ الرّهط: جماعة الرّجل، وهو اسم لما دون العشرة من الرّجال، وقيل: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السّبعة[8].

(١) انظر معانيه ٢/٢٦ .

(٢) انظر البحر ٥/٢٥٣ .

(٣) المدخل ٣٥٥

(٤) (بض الحجر) إذا سال منه الماء ، انظر جمهرة اللغة، وأساس البلاغة(بضض)

(٥) انظر الكشاف ٢ / ٢٨٧ .

(٦) سورة هود ، من الآية (٩١)

(٧) المدخل ١٠٨

(٨) الكشّـــاف ٢/٢٨٩

لكنَّ المعنى الذي أورده الحدَّاديُّ ونسبه لبعضهم ـ ولم أقف على هذا البعض ـ لا ترفضه اللغة، فقد جاء في القاموس المحيط: رجل مُرَهَّط الوجه كمُعَظَّم أي: مُهَبَّجه[1]، والتهبُّج: انتفاخ الوجه وتغضُّنه[2]، والتغضُّن: تكسُّر الجلد، ومنه غضون الجبهة إذا تكسَّر فيها الجلد، يقال: رجل ذو غضون[3]، وتكسُّر الجلد وتغضُّنه وترهُّط الوجه ما يكون إلا بتقدُّم العمر والشيبة.

مسألة:

يقول الحدَّاديُّ في قوله تعالى ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾[4] أطبق المفسِّرون على أنَّه وسوسة الشّيطان، وفي حقيقة اللغة الرّجز: العذاب[5].

فسَّر أبو عبيدة رجز الشّيطان بأنَّه: لطخ الشّيطان، وما يدعو إليه من الكفر[6]، وقال في معناه في سورة الأنعام: الرّجز مجازه: العذاب[7] ويقول الزّجاج في

(١) مادة (رهط)

(٢) جمهرة اللغة (ب ج هـ)

(٣) المرجع السّابق (ض غ ن)

(٤) سورة الأنفال ، من الآية (١١)

(٥) المدخل ١١١

(٦) مجاز القرآن ٢٤٢/١

(٧) المرجع السّابق ٢٢٧/١

قوله تعالى﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1]أي: اهجر عبادة الأوثان، والرجز في اللغة العذاب ... فالتأويل على هذا ما يؤدِّي إلى عذاب الله فاهجر[2]

ومعلوم أنَّ وسوسة الشّيطان تؤدي إلى عذاب الله، فتفسير الرّجز ـ الذي هو العذاب في الأصل ـ بالوسوسة لا تأباه العربية التي تجيز تسمية السّبب باسم المسبِّب،، والوسوسة مسبِّبة للعذاب من نحو قوله تعالى ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾[3] أي: مطرًا هو سبب الرّزق[4].

مسألة:

يقول الحدَّاديُّ في قوله تعالى ﴿مِنَ النّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[5] قال مقاتل: على شكٍّ، فأيُّ نسبة بين الحرف والشكّ[6]

يتساءل الحدَّاديُّ عن النّسبة بين الحرف والشك؟

وجواب سؤاله في التّالي:

---

(١) سورة المدثّر ، آية (٥)

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥/٢٤٥

(٣) سورة غافر ، من الآية (١٣)

(٤) انظر الإيضاح في علوم البلاغة ٥/٢٨

(٥) سورة الحج ، من الآية (١١) .

(٦) المدخل ١١٢ .

يقول أبو عبيدة: كلُّ شاكٍّ في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم[١].

ويقول الزّجاج: «جاء في التّفسير: على شكٍّ، وحقيقته أنّه يعبد الله على حرف الطّريقة في الدين لا يدخل فيه دخول متمكّن»[٢] ويقول الزّمخشريُّ: «على حرف: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مَثَل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر،فإذا أحسَّ بظفر وغنيمة قرَّ واطمأنَّ وإلا فرَّ وطار على وجه»[٣].

وعليه فمن كان على حرف فليس بثابت ولا مطمئن ولا موقن، بل هو على نقيض ذلك يعني على قلق وشكٍّ.

مسألة:

يقول الحدَّاديُّ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[٤]، قال أهل التّفسير: أخلص قلوبهم، وقال الزّجّاج: وهو يخرج على تفسير حقيقة اللغة، فمعناه: اختبر الله قلوبهم فوجدهم مخلصين[٥].

(١) مجاز القرآن ٢/٤٦.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/٤١٤.

(٣) الكشاف ٣/٧.

(٤) سورة الحجرات ، من الآية (٣)

(٥) المدخل ١١٠ ، وانظر قول الزجاج في معانيه ٥/٣٢ .

أصل المحنة: الخبرة، وامتحنته: اختبرته، وامتحنت الذهب والفضة إذا أذبتـــهما لتختبرهم[1]، قال الزّجَّاج: كما تقول قد امتحنت هذا الذهب وهذه الفضة، تأويله: قد اختبرتهما بأن أذبتهما حتى خلَّصت الذهب والفضة فعلمت حقيقة كلٍّ واحد منـــهم[2] فهي إذ تُمْتَحَن وتُخْتَبَر ستغدو خالصة مُخْلَصةً، والعربية ما تمنع تسمية الشّيء بما يؤول إليه[3] كقوله تعالى ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ [4].

مسألة:

يقول الحدَّاديُّ في قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[5].

قيل: إنَّها وادٍ في جهنم، وقيل: جبل في النّار، وقيل: جُبٌّ في جهنم. وفي اللغة: كلمة تستعمل في كل من وقع في ورطة أو هلكة[6].

جاء في لسان العرب أنَّ الويل: حلول الشّر، والويلة: الفضيحة والبلية[7]، وهو الثبور والحزن والشقاء الأدوَم[1].

---

(١) لسان العرب (محن).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٢/٥ .

(٣) الإيضاح ٣١/٥ .

(٤) سورة يوسف ، من الآية (٣٦)

(٥) سورة المطففين آية (١) .

(٦) المدخل ١١٠ .

(٧) لسان العرب (ويل) .

فأيُّ علاقة يريدها الحدّاديُّ أكثر من أنَّ أصل كلمة (ويل) الوقوع في ورطة وهلاك، وهل هناك ورطة وهلاك أكثر من نار جهنم، فجهنم مكان ومحلٌّ لكلّ هلاك وتورُّط، ومن مجاز العربية أن يُذْكَر المكان ويراد ما فيه أو من فيه كقوله تعالى ﴿ فليدع ناديه﴾ [٢]أي: أهل ناديه[٣].

ويمكن أن تكون هذه المسألة من باب المشترك اللفظي فكلمة ويل تعني: الوقوع في ورطة، وتعني: وادٍ في جهنم، يقويه أنَّها وردت في حديث للرسول ﷺ: (ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر) ذكره ابن حنبل[٤].

و أخيرًا

لقد كانت الأوراق السّابقة اجتهادًا لتأكيد قاعدة لا شذوذ عنها ـ حسب علمي ـ وهي أنَّ التّفسير لكتاب الله الكريم لا يمكن بحال من الأحوال أن يخرج عن إطار اللغة التي نزل بها، فإن أصبت فبتوفيق الله وعونه، وإن كان غير ذلك فمن نفس حاولت فما استطاعت إلا هذا.

=

(١) المحرر الوجيز ١٦/ ٢٥٠ .

(٢) سورة العلق ،آية(١٧).

(٣) الإيضاح ٥/ ٣١ .

(٤) مسند أحمد ٣/ ٧٥ ، برقم ١١٧٣٠

قائمة المراجع

- اتجاهات التّفسير في القرن الرّابع عشر، للدكتور فهد بن عبد الرّحمن الرّومي/ مكتبة الرّشد/ الرّياض/الطبعة الرّابعة ١٤٢٣.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي/عالم الكتب/بيروت
- أخبار النّحويين البصريين،لأبي سعيد السّيرافي/ تحقيق محمد إبراهيم البنا/ دار الاعتصام/ الطّبعة الأولى ١٤٠٥
- ارتشاف الضّرب من لسان العرب، لأبي حيّان الأندلسي/ تحقيق الدكتور رجب عثمان محمد/ مكتبة الخانجي/ القاهرة/ الطّبعة الأولى ١٤١٨
- أساس البلاغة، للزمخشريِّ/ مطبعة دار الكتب/ ١٩٧٢
- الأشباه والنظائر في النّحو، للسيوطيِّ/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ الطّبعة الأولى ١٤٠٤
- إملاء ما منَّ به الرّحمن، للعكبريِّ/دار الكتب العلمية/ بيروت/ الطّبعة الأولى١٣٩٩
- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني/ تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي/دار الجيل/ بيروت/ الطّبعة الثانية ١٤١٤
- البحر المحيط، لأبي حيّان الأندلسي/ دار الفكر/ الطّبعة الثانية ١٤٠٣
- بحوث في أصول التّفسير ومناهجه، للدكتور فهد بن عبد الرّحمن الرّومي/مطبعة دار طيبة/ الرّياض/الطبعة السّابعة ١٤٢٤

- البرهان في علوم القرآن، للزركشي/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ المكتبة العصرية/ صيدا ــ بيروت
- جمهرة اللغة، لابن دريد/تحقيق الدكتور رمزي منير بعلبكي/ دار العلم للملايين/ الطّبعة الأولى ١٩٨٧
- الحجة للقراء السّبعة، لأبي علي الفارسي/ تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاني/دار المأمون للتراث/ دمشق ــ بيروت/ الطّبعة الأولى ١٤٠٤
- الخصائص، لابن جني/ تحقيق محمد علي النّجار/ دار الكتاب العربي/ بيروت
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي/ تحقيق الدكتور أحمد محمد الخرّاط/ دار القلم/ دمشق ــ بيروت/ الطّبعة الثانية ١٤٠٥
- شرح ألفية ابن معطي، تحقيق ودراسة الدكتور علي موسى الشّوملي/ مكتبة الخريجي/ الطّبعة الأولى ١٤٠٥
- شرح التّسهيل، لابن مالك/تحقيق الدكتور عبد الرّحمن السّيد والدكتور محمد بدوي المختون/ هجر للطباعة والنشر/ الطّبعة الأولى ١٤١٠
- شرح جمل الزّجاجي، لابن عصفور/ تحقيق الدكتور صاحب أبو جناح/ عالم الكتب/ بيروت/ الطّبعة الأولى ١٤١٩
- شرح الكافية الشّافية، لابن مالك/ تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي/ دار المأمون/ مكة المكرمة/ الطّبعة الأولى ١٤٠٢

- الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس/ تحقيق الدكتور عمر فاروق الطّباع/ مكتبة المعارف/ بيروت/ الطّبعة الأولى ١٤١٤
- العين، للخليل بن أحمد/ تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبـــراهيم السّامرائي/ مؤسسة الأعلمي/بيروت/ الطّبعة الأولى ١٤٠٨
- غاية النّهاية في طبقات القرّاء/لابن الجزري/دار الكتب العلمية
- الفكر النّحوي وأصوله ومناهجه، للدكتور عبد الله الجبوري/ الدار العربيـــة للموسوعات/الطبعة الأولى ١٤٢٣
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي/ دار الجيـــل/المؤســـسة العربيـــة للطباعـــة والنشر/بيروت
- الكشاف، للزمخشري/ دار الفكر/ الطّبعة الأولى ١٣٩٧
- لسان العرب، لابن منظور/ تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين/ دار المعارف
- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى/مؤسسة الرّسالة/ بـــيروت/ الطّبعـــة الثانية ١٤٠١
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي/ تحقيق المجلـــس العلمي بفاس/ ١٣٩٥
- المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، للحدادي/ تحقيـــق صـــفوان عـــدنان داوودي/دار القلم ـــ دمشق/ دارة العلوم ـــ بيروت/ الطّبعة الأولى ١٤٠٨
- مراتب النّحويين، لأبي الطّيب اللغوي/تحقيق محمد أبو الفضل

- إبراهيم/دار نهضة مصر/ القاهرة
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها،للسيوطي/دار الفكر
- مسـند أحمد، لأحمد بن حنبل أبي عبد الله الشّيباني/مؤسسة قرطبة/مصر
- معاني القرآن، للفراء/ عالم الكتب/بيروت/ الطّبعة الثالثة ١٤٠٣
- معاني القرآن الكريم، للنحّاس/تحقيق محمد علي الصابوني/مركز إحياء التّراث الإسلامي/ مكة المكرمة/ الطّبعة الأولى ١٤٠٩
- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج/ تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي/ عالم الكتب/بيروت/الطبعة الأولى ١٤٠٨
- مقدمة ابن خلدون/ دار القلم/ بيروت/الطبعة الرّابعة ١٩٨١
- الممتع في التّصريف، لابن عصفور/ تحقيق الدكتور فخر الـدين قبـاوة/ دار الآفاق الجديدة/بيروت/الطبعة الرّابعة ١٣٩٩
- الموافقات في أصول الشّريعة، للشاطبي/ دار المعرفة/ بيروت
- نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة/ لمحمد الطّنطاوي/ عالم الكتب/ بـيروت/ الطّبعة الأولى ١٤١٧